96967 ٤٥٠

مُعْتَزِلة

البَصْرَة وبَغْدَاد

د.رشيد الخيّون

* معتزلة البصرة وبغداد
* د. رشيد الخيون
* جميع الحقوق محفوظة ومسجلة.
* الترقيم الدولي ISBN 1 898209065
* طبعة أولى/ تشرين الثاني ١٩٩٧.

* الناشر: **دار الحكمة** ـ لندن
88 Chalton Street, London NWI IHJ
Tel: 0171 383 4037 - Fax: 0171 383 0116

* توزيع: **بيسان للنشر والتوزيع**
□ ص. ب. ٥٢٦١ ـ ١٣ بيروت ـ لبنان
□ هاتف ٣٥١٢٩١

"من بركةِ المعتزلةِ أنَ صبيانَهم لا يخافونَ الجنَ"

التنوخي، نشوار المحاضرة

مُقدِّمة

من بين مخلفات التاريخ يبرز الاعتزال، بمقالات شيوخه، محفـزاً نشـطاً في اسـتلهام دلالات العقل مقابل النقل، والتحرر مـن أسـر رتابـة النصـوص. بسـبب أن هـذا الفكـر يمتلـك رؤيـة حيويـة حـول الوجـود كطبيعـة وإنسـان، وعلاقتهمـا بـا للّه. رؤيـة تُمكـن الإنسان، إلى حدٍ ما، من حرية التصرف في شأنه الاجتماعي، ومن التأثير الواعي علـى الطبيعة، وتوجيهها لمصلحته. حاول المعتزلة في مختلـف مراحلهـم الكلاميـة والفلسـفية تأكيد مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وبـدون شـك، يقـود ذلـك إلى تفعيـل دور العقـل في تنظيم الحياة الاجتماعية والاستفادة من الطبيعة بشكل خلاق، بعد فهم قوانينها. ويبرر أحد رموز الاعتزال البصريين القاضي عماد الدين عبد الجبار في "فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة" اعتبار العقل الأصل الأول في الإيمان والحياة، حتى قبل القرآن الكريم والسـنة النبوية بقوله: "لأن به يُميز بين الحسَن والقبيح، ولأن به يعرف الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، وربما تَعجَّبَ من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلـة هـي الكتـاب والسنة والإجماع فقط، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر. وليس الأمـر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن بـه يُعـرف أن الكتـاب حجـة، وكذلك السنة والإجماع، فهو الأصل في هذا الباب".

وقد عبر شيوخ الاعتزال الآخرون عن هذا الأمر، وقبلهم المتكلمـون، والريـادة في ذلـك لجهم بن صفوان، بمبدأ "الفكر قبل ورود السمع". والمقصود بـورود السـمع هـو النـص المنقول، خبراً، أو رواية، أو وحياً. وفي هذا المجال طرح المعتزلة أفكـاراً بالغـة الأهميـة

تجلت في رؤيتهم الخاصة لمكانة العقل في تحديد العلاقة بين الله والإنسان، ورؤيتهم المتطورة تجاه طبائع الأشياء وخصوصيتها. ويفهم من هذه الأفكار أن المعتزلة مالوا إلى القول بعدم تدخل الله في الكون، بعد خلقه، إلا من خلال تلك الوسائط. فالناس يحددون بعقولهم حياتهم الاجتماعية من نظام اجتماعي وسياسي، وهذا يتطلب تحريرهم من سطوة القدر. وتتحدد الطبيعة، كوجود وعلاقات، من خلال ما ترك الله فيها من طبائع وقوانين.

ورغم أنَّ هذه الأفكار الكلامية والفلسفية المثيرة، عصر ذاك، ولعلها ما زالت مثيرة في الزمن الحالي أيضاً، حاول مؤرخون عديدون أن يعطوا الاعتزال أبعاداً سياسية بحتة، بدءاً من ربط وجود الاعتزال كفكر وفلسفة بالذين اعتزلوا الخلافات في السلطة الإسلامية بين مركز الخلافة والمتمردين، سواء كان ذلك في معركة الجمل أو معركة صفين، فتسمية معتزلة اشتقت من العزلة. وبالغ بعض المؤرخين أيضاً في الدور السياسي الثوري للمعتزلة في مواجهة السلطة الأموية ثم العباسية. كذلك بالغ مؤرخون محابون في اعتبار المعتزلة حماة الدين ضد فرق إسلامية، وديانات وفلسفات منها المانوية وديانات إيرانية وهندية ويونانية، انطلاقاً من فلسفة التوحيد المعتزلي الخاصة في تنزيه الذات الإلهية من الصفات، ومن إشغالهم لموقع فكري كادت تلك الديانات والفلسفات أن تحتله، وفي هذه المهمة عدّوا مجددين للدين الإسلامي وتخليصه من غلاة ومشركين.

والظاهر أن هذه الآراء وغيرها التي ظنها المؤرخون والباحثون، في شأن المعتزلة، أتت كمحاولات في الدفاع عنهم ضد ما نسب لهم في التاريخ المللي والنحلي من مثالب وكفريات، يوم سُميت أفكارهم بالفضائح والشنائع والأكاذيب. لكن تلك الآراء السليمة النية غطت على الجوهر الفلسفي للاعتزال في النظر للإنسان كائناً حراً مسئولاً عن أفعاله، والنظر إلى ظواهر الكون وهي متناسقة في علاقات وقوانين.

أما مؤرخو الملل والنحل من المعتزلة فقد تبنوا الدفاع عن جماعتهم بطريقة لا تعقل عندما نسبوا إلى طبقات الاعتزال، طبقة مقدسة، الخلفاء الراشدين الأربعة، وعمر بن عبد العزيز، وابناء واحفاد علي بن أبي طالب، وصلحاء الصحابة والتابعين. ومحاولة

التأصيل هذه اساءت إلى مصداقية الرواية التاريخية عند المعتزلة، بما فيها من تهويل ودعاية، وخلاف ذلك يرجع الاعتزال في أصوله إلى منْ قتلوا صبراً وما زالوا متهمين، كمعبد الجهني والجعد بن درهم والجهم بن صفوان، هذه الحقيقة وردت من أعداء الاعتزال من المؤرخين، لكن هذا لا يعفيهم من حشوا التاريخ المللي والنحلي بالاغاليط ضد المعتزلة وغيرهم.

إن المحاولات، القديمة منها والحديثة، في كتابة تاريخ المعتزلة كانت بعيدة عن مسار الاعتزال التاريخي، وعلاقته بالمدن التي ظهر فيها. فالإسلام كان في كل مكان، ولكن لماذا يظهر المعتزلة وإخوان الصفا بحاضرتي العراق، البصرة وبغداد، دون غيرهما من المدن؟ إن الطريقة التي كتب فيها تاريخ المعتزلة والفرق الفكرية وتاريخ الفلسفة بشكل عام، التي سُجلت عربية إسلامية فقط، هي نفس الطريقة التي كُتب فيها تاريخ المدن والحواضر العراقية، ولعلَّ هذا التعامل كان أخف بالنسبة لمدن الآفاق الأخرى مثل إيران وبلدان ما وراء النهر، ومصر وغيرها. فبغداد نسبت إلى أبي جعفر المنصور، والبصرة نسبت إلى عتبة بن غزوان، والكوفة نسبت إلى سعد بن أبي وقاص، وكل الذي عمله هؤلاء هو بناء مسجد ومعسكر لمواصلة الفتح، بصخور الزقورات والمعابد والسدود القديمة!

ظهرت دعوة المعتزلة في أجواء عراقية، البداية كانت بالبصرة، ثم تأسس فرع لهم ببغداد في بداية القرن السابع الميلادي أو (الثاني الهجري) على يد بشر بن المعتمر. أما تسميتهم بالمعتزلة فقد وردت من قبل الخصوم، لكنهم وافقوا عليها وباركوها. يقول القاضي عبد الجبار في كتابه "المجموع في المحيط بالتكليف" في تسميتهم بالمعتزلة: "إنما تسمينا بالعدل والتوحيد، لأنا أثبتناه تعالى واحداً عدلاً، وأن التسمية في الاعتزال مدح بالآيات التي في القرآن، وأن السبب في التسمية بهذا الاسم هو اعتزال عمرو (ابن عبيد الباب) وخلعه الحسن (البصري)، لوحشة لحقته من قتادة (السدوسي، فقيه أعمى، ورث رئاسة حلقة الحسن بعد وفاته). فقال قتادة اصبح عمرو معتزلياً". وفي قناعتهم بهذا اللقب أو التسمية يقول وزير المأمون ابن يزداذ في كتابه "المصابيح": "إن كل أرباب

المذاهب نفوا عن أنفسهم الألقاب إلا المعتزلة، فأنهم تبجحوا به، وجعلوا ذلك علماً لمن يتمسك بالعدل والتوحيد، احتجوا في ذلك أنه تعالى ما ذكره إلا في الاعتزال من الشر".

من رواد الاعتزال الأوائل بالبصرة كان واصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد الباب، وعثمان الطويل، وأبو الهذيل العلاف، وإبراهيم بن سيار النظام، ومعمر بن عباد السُلمي، وأبو عثمان الجاحظ، وثمامة بن أشرس، وأبو يعقوب الشّحام، وأبو علي الجبائي، وبشار بن برد الشاعر، وأبو الحسين بن الراوندي، وضرار بن عمرو، وأبو الحسن الأشعري (قبل خروج آخر أربعة من الاعتزال إلى مذاهب أخرى)، وغيرهم. أما ببغداد، فمنهم: بشر بن المعتمر الهلالي، وراهب المعتزلة أبو موسى صبيح المردار، وجعفر بن حرب، وجعفر بن مبشر، وعبد الله الإسكافي، وعبد الرحيم الخياط، وأبو القاسم الكعبي (البلخي).

كان واصل بن عطاء على صلة بالحسن البصري الذي ينحدر من دست ميسان (العمارة حالياً) وكانت هذه الصلة صلة المريد بالشيخ أو التلميذ بالاستاذ. فالحسن كان صاحب حلقة دراسية في مسجد البصرة، يتحلق حوله عدد من الزهاد والمنقطعين إلى العلوم الدينية والتأمل، كانت هذه الحلقة بعيدة عن السياسة إلى حد ما. فشيخها كان خائفاً من الحجاج بن يوسف الثقفي طيلة ولايته التي استمرت عشرين عاماً على العراق، وكانت فترة مرعبة بالنسبة لهذا الشيخ والعراقيين كافة. ورغم هذا الانزواء عن السياسة والخوف المتأصل في النفس فان الحجاج قال عنه: "غلبني علجٌ[1] تواريه أخصاص (بيوت القصب) البصرة". ولا ندري بأي شيء غلب الحسن البصري الحجاج

[1]- وتعني الفلاح من السكان الاصليين (جمال جودة، العرب والأرض في العراق، ص١٠٩). وورد في كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف (ص٢٤-٢٥): "فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها فما يسد الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق". وفي القاموس:العلج يعني الرجل من الكفار من غير العرب، والظاهر أن هذا اللقب أو النبز ظل يُطلق على فلاحي البلدان المفتوحة حتى بعد اسلامهم.

الرهيب؟ لعله غلبه بعفته، والسعادة الروحية التي يفتقدها الحجاج وكل ظالم على الأرض!

تنافست على وراثة اسم الحسن البصري وتراثه الفقهي مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية، من التي ظهرت في زمانه ومن التي ظهرت في ما بعد، ومن المسيحيين منْ عدّه من الرهبان المباركين، وهناك منْ عدَّ الزاهدة رابعة العدوية من مريديه، وأنهما كانا يصليان معاً على سجادة تطوف فوق ماء الفرات، ورد ذلك كضرب من ضروب الخيال الصوفي، فالمتصوفة هم الآخرون يعدّون الحسن البصري سلفاً لهم.

حاول بعض المؤرخين نسب الاعتزال إلى الحسن البصري، فقد عدّه مؤرخو الملل والنّحل المعتزليون من طبقة الاعتزال الثالثة. بينما المعروف تاريخياً ان الاعتزال ظهر خلاف رغبة هذا الشيخ، بعد أن انقسمت حلقته وانصرف العديد من مريديه عنه، ليلتفوا حول واصل بن عطاء الذي كثر حوله الأتباع. كان إعلان الاعتزال الظاهري بالقول بمبدأ "المنزلة بين المنزلتين" (صاحب الذنب الكبير وسط بين منزلتي الإيمان والكفر، على أساس أن الايمان ثابت والكفر زائل). كان إعلان واصل لهذا المبدأ خلافاً لقول الخوارج في المذنب أنه كافر، وخلافاً لقول المرجئة أنه مؤمن، ومخالفاً أيضاً لقول الحسن البصري أنه منافق. ان الموقف من أصحاب الكبائر لم يعدَّ موقفاً فقهياً عادياً، كما يتصوره البعض، بقدر ما كان موقفاً سياسياً خطيراً، لأنه يتعلق بالموقف من أهل السلطة، وهذا هو بيت القصيد من تحديد الموقف والاختلاف عليه. وقد جاء موقف المعتزلة وسطاً بين الخوارج وتشددهم، والمرجئة ومرونتهم.

في مناظرة جمعت بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد في مجلس الحسن البصري أنتصر واصل لمبدئه الجديد "المنزلة بين المنزلتين". وبعد انقطاع عمرو بن عبيد في المناظرة أنسحب هو الآخر من حلقة شيخه الحسن البصري، معلناً انتماءه إلى الاعتزال، ليصبح قطباً من أقطابه، ثم رئيساً للمذهب بعد وفاة واصل السنة١٣١هـ. هكذا أُعلن عن تأسيس الاعتزال، مذهباً فكرياً، من خلال طرح مبدأ "المنزلة بين المنزلتين" في زاوية

من زوايا مسجد البصرة، بعد استكمال مستلزمات التأسيس وسط مذاهب متعددة من شيعة، ومرجئة، وخوارج، وإباضية، وجبرية، وقدرية، ومفكرين محايدين.

شيدَ المعتزلة كيانهم الفكري على مقالات تيارين معروفين، هما: نفاة القدر ومثبتوه، من القائلين بنفي الصفات (تنزيه الله مما تتصف به مخلوقاته) وخلق القرآن (القرآن ليس كلام الله بل مخلوق من مخلوقاته). إن نفي القدر ونفي الصفات عن الذات الإلهية هما فكرتان أساسيتان عند المعتزلة، وعليهما تعتمد مقالاتهم الكلامية والفلسفية الأخرى، وما القول في "المنزلة بين المنزلتين" إلا الشكل الظاهري الذي أعلن به واصل اعتزاله عن مجلس شيخه الحسن البصري، كما أسلفنا.

وجد المؤرخون القدماء، ومنهم معتزلة، في تسمية التيار الأول بالتيار القدري عدم اتفاق بين الاسم والمسمى، فالتسمية منسجمة مع التيار المناقض وهو التيار الجبري، ولذا مَيّز المؤرخون مخالفو الجبر بتسمية نُفاة القدر. ومن نُفاة القدر أقتبس المعتزلة فكرة "نفي القدر"، لتصبح جوهراً في فلسفة العدل المعتزلي، فشرعية الحساب في الآخرة تتطلب التصديق بنفي القدر أولاً، إذْ تسفر عن حرية الإنسان ومسئوليته عن أفعاله. ومن أشهر نفاة القدر: معبد الجهني، وغيلان الدمشقي أو القبطي، وكلاهما قُتل بسبب أفكاره. أما التيار الجبري ، فهو من حيث الظاهر، كان على صلة وثيقة بالحكم الأموي. فمفكرو هذا التيار ينظّرون إلى وجود الحكم الأموي إرادة إلهية ليس من حق الناس تبديلها أوحتى الاعتراض عليها. لكن هذا التيار لم يكن متجانساً، فهناك العديد من منظّريه وإن كانوا يقولون بالإجبار، أي الفعل خيره وشره من الله ويبالغون في الغاء الأسباب الطبيعية والاجتماعية، إلا أنهم تبنوا فكرة "نفي الصفات" عن الذات الإلهية وفكرة "خلق القرآن" المتصلة بها. وهاتان الفكرتان لهما خطرهما على القائلين بهما، وهما فكرياً لا تقلان خطورة عن فكرة "نفي القدر". ومن أبرز هؤلاء المفكرين: الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، اللذان قتلا بحفلات دموية رهيبة من قبل الولاة الأمويين بالعراق، وإيران. وبسبب حضور الفكر القدري "نفي القدر" سمي المعتزلة بالقدريين كما

سموا بالجهميين نسبة إلى الجبري الجهم بن صفوان. وكذلك عَدَّ بعض مؤرخي الملل والنحل كل منْ ناقش في القدر إنه معتزلي، حتى قبل ظهور الاعتزال.

أصبحت فكرة "نفي القدر" جوهراً في فلسفة المعتزلة، بينما أصبحت فكرة "نفي الصفات" عن الذات الإلهية جوهراً في فلسفة التوحيد لديهم. أما مبادئ أو أصول المعتزلة الأخرى: "المنزلة بين المنزلتين" و"الوعد والوعيد" و"الامر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ما هي إلا تطبيقات لمبدأ العدل كشروط لتحقيقه اجتماعياً. لم يكن المعتزلة، الوحيدين من التيارات والفرق الفكرية الذين تبنوا فِكَر نفي القدر، ونفي الصفات، والقول بخلق القرآن، بل ظهرت واضحة ورئيسية عند الإباضية الذين ظهروا بالبصرة قبل ظهور المعتزلة بكثير. والإباضية سائدة في عُمان حالياً، وهي مذهب سياسي وكلامي لا يسمح أتباعه في تسميتهم بالخوارج، بل يؤكدون أنهم الشراة والحرورية الأوائل، وإن الخوارج، مثل الازارقة والنجدات، قد انشقوا عليهم. وتأخذ مسألة أسبقيتهم على المعتزلة، زمنياً، بنظر الاعتبار عند تحديد الفضل الفكري في تبني "نفي القدر" و"نفي الصفات"، لكن الشائع حول تلك الأفكار أنها معتزلية، والإباضية غير سابقين لها. كذلك ظهرت فكرتا "نفي القدر" و"نفي الصفات" عند المذهب الشيعي الزيدي، فيما بعد، لكن الزيدية استبدلوا مبدأ "المنزلة بين المنزلتين" بأصل الإمامة الذي ضمه المعتزلة لأصل العدل، ومن المعروف أن للزيدية صلات متينة بالمعتزلة منها الصلة القديمة بين واصل بن عطاء وزيد بن علي، ثم التداخل بين معتزلة بغداد والزيدية بالاتفاق حول القول بإمامة المفضول قبل الفاضل، أي تقديم أبي بكر الصديق على علي بن أبي طالب، رغم أنَّ الأول هو المفضول والثاني هو الفاضل على حد اعتقادهم.

يستطيع الفريقان من نفاة القدر ومثبتيه أن يستندوا إلى آيات قرآنية في تأكيد شرعية رأي كل منهما، فنفاة القدر يستطيعون أن ينتصروا لرأيهم بآيات عديدة، منها: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يرهُ، ومنْ يعمل مثقال ذرة شراً يرهُ"[١]، "إنا أهديناهُ السبيل إما

[١]-الزلزلة، ٧-٨